موضوعات الخطاب في نهج البلاغة

د. إيمان عبد الحسن علي
جامعة بابل– كلية العلوم الإسلامية

Discourse topics in Nahj al-Balaghah

Dr. Iman Abdelhassan Ali
College of Islamic Sciences-University of Babylon
Emaanhasan339@gmail.com

Abstract

- This research aims to identify the most important topics of discourse in Nahj al-Balaghah, as the topics of Imam Ali (peace be upon him) sermons vary greatly, for the topics of discourse in Nahj al-Balaghah in terms of disagreement and harmony, which is a visible feature in the language of Nahj al-Balaghah, which makes its study a key to understanding the structures on which the content was based. The intellectual that led Nahj al-Balagha to deliver it, whether it was at the level of the sermon or the message.

-I dealt with this from two perspectives: the disagreement and its study in the form of opposing dualities, and the agreement and similarity in detail that will come, God willing. The research concluded a number of results, the most important of which are .

-Key words: address. Nahj al-Balaghah. Contrary. Harmony. dualism

ملخص البحث

يروم هذا البحث الوقوف على أهم موضوعات الخطابِ في نهج البلاغة، إذ تتنوعُ موضوعاتُ خِطَاب الإمام عليٍّ**(عليه السلام)** تنوّعا كبيرًا، ويتمظهر ذلك في التخالف والتآلف وهي سمة ظاهرة في لغة نهج البلاغة مما يجعل دراستها مفتاحًا لفهم البنى التي ارتكز عليها المضمون الفكري الذي سيق نهج البلاغة لإيصاله سواء أكان على مستوى الخطبة أم الرسالة.وقد تناولت ذلك من جهتين هما: المخالفة التي ودراستها في صورة ثنائيات متضادة، والموافقة والمشابهة بتفصيل سيأتي إن شاء الله.

وقد خلص البحث إلى جملة من النَّتائج أبرزها:

- كان الإمام علي **(عليه السَّلام)** كثيرًا ما يعمد إلى ذكر الشيء ونقيضه، فلم يكتفِ بذكر الشيء فقط؛ وذلك لأنَّ التناقض والتقابل هما ديمومة الحياة، فهو **(عليه السَّلام)**، كان خبيرًا بالواقع وعلاقات الناس فيما بينهم، فالبنية الضدية في الثنائيات تشحن الخطاب في نهج البلاغة بالحركة.
- يوجِّه الإمامُ علي **(عليه السَّلام)** خِطَابَه إلى الكيان الإنساني بشكلٍ عامٍ؛ لأنَّه يُخاطبُ العقلَ والعاطفةَ وعندما يتجه هذا الاتجاه فلا بُدَّ له من ترك الأثر في الذات الإنسانية وتحقيقه لأهدافه، إذ كان لغايتي الجمال المتمثلتين في المنفعة واللذة حضورهما البيِّن في خطابات الإمام علي **(عليه السَّلام)** من دون تفريط بأيٍّ منهما.
- كَانت خِطاباتُ الإمام علي**(عليه السَّلام)** انعكاسًا للواقع الإنساني في تلك الحقبة من تاريخ الإنسانية ولما كانَ المجتمعُ يعيشُ حالةً من الصراع بين القوى: قوى الخير والشر، والحق والباطل، والعدل والجور كثُر تناول الإمام**(عليه السَّلام)** لهذه القوى في صورة ثنائيات متضادة وأخرى متناغمة.

الكلمات المفتاحية : الخطاب، نهج البلاغة، التخالف، التآلف، الثنائيات.

في هذا المبحث سنتعرض لموضوعات الخطاب في نهج البلاغة من جهة التخالف والتآلف وهي سمة ظاهرة في لغة نهج البلاغة مما يجعل دراستها مفتاحًا لفهم البنى التي ارتكز عليها المضمون الفكري الذي سيق نهج البلاغة لإيصاله سواء أكان على مستوى الخطبة أم الرسالة.

ولأجل هذا فإننا سوف ننظرُ إليها من جهتين هما: المخالفة التي ستقودنا إلى تفحص الموضوعات المتخالفة ودراستها في صورة ثنائيات متضادة، والموافقة والمشابهة التي سنسعى إلى دراسة الأفكار في إطار صورة موضوعيةٍ متنامية. ونحن إذ نسعى إلى دراستها على هذا الشكل إنما نؤمن بأهمية ذلك على مستوى النَّصِّ، ومن ثم كان من الضروري تفحصها وبيان أثرها وفاعليتها في بناء النَّصِّ.

1- الثنائيات المتضادة

يكشفُ الأداءُ التركيبي للخِطَاب في نهج البلاغة بوضوح حضورًا بارزًا لهذه الثنائيات المتقابلة بالتضاد بمعنى إنَّ كلَّ واحدٍ منها يمثلُ ضدًّا للآخر، فالتوحيد مثلًا ضدّه الشرك والحق ضدُّه الباطل والإيمان ضدُّه الكفر[1]. إذًا الدراسة التي تعمل على كشف ((التركيب الضدي للعام والجدلية التي تتخلله، تصبح منطلقًا لوعي نقدي أعمق لا يكتفي بمحاولة فهم الظواهر الفنية من حيث هي الحركة على سطح أفقي، بل يغوص على بنيتها الضدية ليجلو طبيعة الفاعلية التي تتراشقُ فيها))[2]، فالتحليل لهذه الثنائيات لا يكتفي بمجرد فهمها، بل يتعدى ذلك إلى إبراز شبكة العلاقات بينها[3]، فقد تكون هذه العلاقات علاقات نفي وتناقض أو تناغم وتنام[4].

وينتظم نهج البلاغة الكثير من الثنائيات المتضادة منها والمتناغمة إلا أن إمعان النظر يرينا أن التقابل بين المتضادات يتجلَّى لنا في ثلاث متقابلات هي:

أ- التوحيد والشرك.

ب- الإيمان والكفر.

ج- الحق والباطل.

في حين يتجلَّى التقابل غير الضدي أو ما يمكن أن يسمى التقابل بين المتناغمات في مظهر واحد أساسي يتمثَّلُ في التقابل بين: الدنيا والآخرة.

ولا يفوتني التنويه إلى أنَّه ثمة ثنائيات متضادة وغير متضادة كانت موجودة في خطاب نهج البلاغة، إلَّا أنَّنا لم نولها الأهمية ولإمكانية إدراجها تحت الثنائيات المذكورة:

أ - التوحيد والشرك:

يعرف التوحيد بأنَّه ((العلم الذي يبحثُ فيه عن الله تعالى))[5]، إذ يعبِّر عن إقرار وحدانية الله تعالى[6]، بمعنى إثبات صانع واحد لهذا العالم[7].

1- ينظر: المنطق: 48 .

2- جدلية الخفاء والتجلي – دراسات بنيوية في الشعر، كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1979م: 10 .

3- دينامية النص – تنظير وانجاز: 183 .

4- ينظر: جدلية الخفاء والتجلي – دراسات بنيوية في الشعر: 10 .

5- التوحيد، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت381هـ)، تح: هاشم الطهراني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة، ط8، 1423هـ: 20 .

6- ينظر: التوحيد، مرتضى مطهري، ترجمة : إبراهيم الخزرجي، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط1، 1998م: 13 .

7- ينظر: روح الإيمان في نفس الإنسان، محمد الأمين: 23 .

وتبعًا لذلك يكون هناك نقيض للتوحيد؛ ألا وهو الشرك الذي يعرّف بأنَّه: نفي الوحدانية عن الله والقول بتعدد الآلهة، فالإقرار بوحدانية الله ونفي الشرك عنه هي من أهم المسائل العقائدية التي تصدَّرَتْ التعاليم السماوية على الإطلاق إذ يُعد ((أساسًا لسائر التعاليم والمعارف الإلهية التي جَاءَ بها أنبياء الله ورسله))[8]. إذ قال تعالى:﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِي**﴾ الأنبياء/25، فشعار الأنبياء جميعًا بدءًا من نبي الله آدم **(عليه السَّلام)** إلى خاتم الأنبياء محمد **((صلَّى الله عليه وآله وسلم))** في جميع المواقف قولهم:**((** لا اله إلا الله ولا نعبد إلا إياه**))**.

إذ كان من الطبعي أنَّ اللهَ لم يرسل الرُّسُل عبثًا وإنَّما لا بُدَّ له من غاية تتمثل في إقرار عقيدة التوحيد التي تتلخصُ في ألَّا يشرك العبدُ مع الله إلهًا آخر مؤديًّا ذلك خوض الأنبياء صراعًا مع أقوامهم من أجل هذه العقيدة.

إذ((تكتسب جدلية المعقول واللامعقول في الخطاب القرآني صورة صراع بين التوحيد والشرك))[9]؛ وذلك أنَّ الشرك ينطوي في ذاته على تناقض لقوله تعالى:﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا**﴾ الأنبياء/22.

إذ إنَّ القولَ بتعدد الآلهة يؤدي إلى إخلال النظام الكوني وهذا لا يقبله العقل، فتبعًا لذلك يكون التوحيد هو المعقول، والشرك هو اللامعقول، وبذلك يكونُ هدفُ الأنبياء جميعًا هو إقرار المعقول على اللامعقول أي ((نشر خطاب العقل وترجيحه، بل وتسويده على خِطَاب اللاعقل الخطاب المكرَّس للشرك))[10].

وفي خِطَاب نهج البلاغة نجد حضورًا بارزًا لهذه العقيدة أي عقيدة التوحيد بوصفها الأصل الأول من أصول الدين الإسلامي، ففي خطابه التوحيدي يُثبتُ أن كلَّ ما في الوجود يدل دلالةً قاطعةً على وحدانية الله فـ((المرء الذي يطلق العنان لعقله من أجل التفكير والتأمل في الموجودات بدءًا من الذرة وانتهاءً بالمجرة، سيصل إلى أن العقلَ السليم سيرفض من تلقاء ذاته أن يكون هذا الكون قد وُجِدَ بطريق الصدفة، أو أنه بعيد عن إدارة إلهٍ خالقٍ عالمٍ حكيم))[11]، وهذا ما نلمسه واضحًا بقوله **(عليه السَّلام)**:**((لو ضربتَ في مذاهب فكرك لتبلغَ غاياته، ما دلتك الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة، لدقيق تفصيل كل شيء وغامض اختلاف كلّ حيّ، وما الجليل واللطيف والثقيل والخفيف والقوي والضعيف في خلقه إلَّا سواء))**[12]، فالملاحظ على هذا المقطع من خطاب الإمام علي **(عليه السَّلام)** أنه يؤكد على ضرورة إعمال العقل دليلًا على مدى عظمة الله وقدرته. يقولُ الإمامُ عليٌّ **(عليه السَّلام)** في خطبته التوحيدية: **((الحمدُ لله الذي لم تسبق له حالٌ حالاً، فيكون أولا قبل أن يكون آخرًا، ويكون ظاهرًا قبل أن يكون باطنًا. كل مسمى بالوحدة غيره قليل وكل عزيز غيره ذليل، وكل قوي غيره ضعيف، وكلّ مالك غيره مملوك، وكلّ عالم غير متعلم، وكلّ قادر غيره بقدر وبعجز وكلّ سميع غيره يصمّ عن لطيف الأصوات ويصمّه كبيرها، ويذهب عنه ما بَعُدَ منها، وكل بصير غيره يعمى عَنْ خفي الألوان ولطيف الأجسام، وكلّ ظاهرٍ غيره باطن وكل باطنٍ غيره ظاهرٍ))**[13].

---

[8]– التوحيد والشرك في القرآن الكريم، جعفر السبحاني، دار الولاء، بيروت، ط2، 1425هـ– 2004م: 5 .

[9]– تكوين العقل العربي: 136 .

[10]– تكوين العقل العربي: 136 .

[11]– الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر، راجي أنور هيفا، دار العلوم، لبنان، ط1، 1426هـ– 2005م: 397 .

[12]– نهج البلاغة: 340 .

[13]– نهج البلاغة: 102 – 103 .

فالمتأملُ لهذه الخِطبة يجدُ فيها ((أمورًا ما كانت تتهيأُ لرجلٍ يعيشُ في محيطٍ مثل محيطه وزمانه ، لولا فطرةٌ صافية خصّه الله بها ، فجاءَ بآراء وفلسفات هي خلاصة تأملٍ عميق في الذات الإلهية))[14]، فالسمة الغالبة في خطاب الإمام علي **(عليه السَّلام)** هي ضرورة التأكيد على وحدانية الله والاعتقاد بها أولا بعدها يحصل الاطمئنان لهم ثم يستقرُ في قلوبهم:((**فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياحَ برحمته ووتد بالصخور ميدان أرضه**))[15]، فهذه العلوم الإلهية المنطوية على عقيدة التوحيد هي ((التعاليم القادرة على إقناع العقل البشري وإرضاء حاجاته الفكرية وإشباع فطرته الإنسانية لأنَّ هذه التعاليم والحقائق التوحيدية التي يريد الإمام أن يُربِّي الناسَ عليها إنَّما هي انعكاسٌ صادق وأمين لتعاليم القرآن الكريم))[16].

فتناول الإمام علي**(عليه السَّلام)** هذه الأمور الدينية العقائدية في خطابه للَفِت أنظار المخاطبين إلى التأمل في العالم والنظام الذي خلَق الله تعالى به الكون كلَّه؛ لأنَّ الإسلام أصلًا يُبنى على دعامة التوحيد ((التوحيد المطلق المجرد الشامل الذي لا يشوبه شكٌّ من قريب أو بعيد هو قاعدة التصور التي جاء بها الإسلام وظلَّ يرسخها في الضمير الإنساني ويتتبعُ هواجسه حول هذه الحقيقة حتى يجعلها متينة يقينية راسخة لا يتطرق إليها الشكُّ في أية صورة من الصور))[17].

فثنائية التوحيد والشرك تقوم على علاقة النفي والتناقض، فلم يكتفِ الإمامُ عليٌّ **(عليه السَّلام)** في خطابه على الطلب بأن يكون الإنسانُ مُوَحِّدًا، بل يجب أن يكون مؤمنًا بكلّ أمر صادرٍ إليه من السماء.

وتتجلَّى حقيقة الصراع بين التوحيد والشرك في صورة صراع بين المعقول واللامعقول، وصراع بين الصلاح والفساد، وصراع بين النفع واللا نفع، وصراع بين الخير والشر.

ب- الإيمان والكفر:

الإيمان هو التصديق والاعتراف – ظاهرًا وباطنًا– بالتسليم لله سبحانه وتعالى، وضدُّه الكفر الذي هو نكران الاعتراف بالتسليم بالله سبحانه وتعالى.

فبين الإيمان والإسلام علاقة عموم وخصوص، فالإيمان جوهره ولبه فمنذ أن وُجِدَ الإنسان كان الإيمانُ والكفرُ ضده، فتبعًا لذلك يبقى الصراع دائمًا وأبدًا بينهما وذلك لأنَّ ((اللهَ تعالى لم يُرِدْ أن يجبرَ الإنسانَ على الإيمان بل أعطاهُ قوة الاختيار))[18]، يكفي ذلك أن هناك سورة من سور القرآن مسماة باسم(المؤمنون) وأخرى باسم (الكافرون).

فالإنسان بعدما أوضحَ اللهُ له جميعَ السُّبل، فأما أن يكون مؤمنًا أو كافرًا فإذا آمن حَظي بجزاء أهل الإيمان، وإذا كفر عُدَّ من أهل الكفر وجوزي بجزائهم[19].

فتبعًا لذلك يؤدي الإيمانُ إلى الاطمئنان والصلاح بينما يؤدي الكفر إلى الضيق والبؤس والفساد.

---

[14]- ينظر: الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر: 398 – 399 .

[15]- نهج البلاغة: 18 .

[16]- الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر: 413 .

[17]- الخطاب القرآني للأنبياء والرسل (دراسة فنية): 33 .

[18]- علم اللغة التوحيدي بين النظرية والتطبيق، محمد علي الحسيني، مؤسسة التوحيد، إيران، ط1، 1417هـ - 1997م: 220 .

[19]- ينظر: م، ن: 221 .

وقد جاء القرآن الكريم مصرّحًا بوجود علاقة بين الإيمان بالله تعالى والاطمئنان فالإنسان المؤمن يحصل له اطمئنان في قلبه، كما في قوله تعالى: ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾الرعد/28. فإذا علمتَ أنَّ الذكر نتيجة للإيمان ومظهرٌ من مظاهره عرفتَ العلاقة بينهما.

وفي خطاب نهج البلاغة نلمس بوضوح وجود ثنائية الإيمان والكفر بوصفها امتدادًا طبيعيًّا لثنائية التوحيد والشرك بوصفهما يقومان على التخالف فضلًا عن مقوِّمات أخرى يعتمد عليها كلٌّ منهما.

والإمام علي(**عليه السَّلام**) يوضح في خطاب نهج البلاغة الإيمان ونقيضه الكفر، وقد سُئِلَ عن معنى الإيمان فقال:((**الإيمان معرفةٌ بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان**))[20]. فلم يقتصر الإيمان على المعرفة القلبية وإنما فسره بأنَّه يجبُ على الإنسان أن يقرَّ بلسانه حتى يوافق الظاهر الباطن أي اللسان والقلب معًا، وبذلك يكون إيمانُه صحيحًا إذا تطابقَ قولُه وعمله.

وقد حلل الإيمان بقوله (عليه السَّلام):((**الإيمانُ عَلَى أربع دعائِمَ: على الصَّبر، واليقينِ والعَدْلِ، والجهاد**))[21]، محاولًا (**عليه السَّلام**) أن يُوْصِلَ حقيقةَ الإيمان إلى النفس بقوله:((**إنَّ الإيمانَ يبدو لُمْظَةً في القَلْبِ كُلَّما ازدادَ الإيمانُ ازدادَتِ اللمظَةُ**))[22].

إذًا فالإيمانُ معرفةٌ أولا فهو يَدلُّ على حركية إيجابية يجتلبُ الخير من الخارج بعد خلو الداخل منه، ثم هو استقرار وطمأنينة لهذا الشيء المجتلب حتى إذا استقرت الشخصية خَرجَتْ إلى خارج حدودها لتظهر ذلك في مظهر من مظاهر ذلك الاستقرار ممثَّلًا بإيقاع ذلك على الغير ليكون عملًا تجسده.

وعندما قام الإمام (**عليه السَّلام**) بتحليل الإيمان في مقابل هذا حلل الكفر بقوله: ((**الكُفْرُ على أربع دعائم: على التَّعمق والتنازع والزيغ والشقاق**)) [23].

وقد قدم الإمام(**عليه السَّلام**) وصفًا رائعًا للإيمان بقوله :((**سبيلُ أبلج المنهاج، أنور السراج فالإيمان يُستدل على الصالحات وبالصالحات يُستدل على الإيمان وبالإيمان يعمر العلم وبالعلم يُرهب الموتُ، وبالموت تختم الدنيا، وبالدنيا تحرز الآخرة**))[24]، فالعلاقة بين الإيمان والصالحات هي علاقة دَوْر إذ يُستدل بأحدهما على الآخر، فالإيمان أساس للأعمال الصالحة، وللقيم المُثلى التي دعا الله تعالى إليها، خلافًا لـ(اللا قيم) التي أرادها أهل الكفر أن تسودَ فتؤدي بالإنسان إلى التهلكة.

فالإيمان طريقٌ واضح من تبعه فهو على جادة الصَوَاب، ومَنْ تخلَّف عنه فقد هلك، نلاحظ في هذه الثنائية وحدة الحركة وتطابقها مع الثنائية الأولى (التوحيد والشرك) التي مثَّلت لدى الإمام(عليه السَّلام) معرفة بالله ثم إقرار بوحدانيته ثم إظهار ذلك في عمل يحصر فيه العبد صلته وتوكله واعتقاده بالله تبارك وتعالى.

ثم هما بعد ذلك يستندان على أعمال العقل؛ لأنَّ التوحيد مدخل لطيف والإيمان ومضة، فغرض الإمام علي(عليه السَّلام) من تناول ثنائية الإيمان والكفر في خطابه بمنزلة الدعوة الصريحة؛ لأنَّ يضع الإنسان على

---

[20]- نهج البلاغة: 643 .

[21]- م، ن: 603 .

[22]- م ، ن: 652 .

[23]- نهج البلاغة : 605 .

[24]- م، ن: 273 - 274 .

معرفة تامة بالإيمان وما يترتب عليه والكفر وما يحمله من عواقب، لذلك يبقى الإيمان مناقضًا للكفر محاولًا السيادة عليه ومحاربته. إذ إنَّ الإنسانَ المؤمن يعملُ بكل ما يرضي الله تبارك وتعالى، والابتعاد عما يسخطه.

لهذا دعا الإمامُ علي (عليه السَّلام) الإنسانَ الرجوعَ إلى الإيمان والاحتكام إليه؛ لأنَّ الإيمان هو:((العقد بالقلب والقول باللسان والعمل بالجوارح فلا يكون المؤمنُ مؤمنًا حتى يستكملَ فعلَ كلَّ واجب ويتجنب كلَّ قبيح))[25].

ج- الحق والباطل:

يعرَّف الحق بأنه:((عبارة عن الواقعيات))[26]. وينقسم على قسمين: الحق التكويني والمراد به واقعيات عالم الوجود، والحق التشريعي والمراد به القوانين الإلهية التي شُرِّعتْ من أجل الفرد والجماعة في ضوء المصالح والكفاءات الذاتيَّة والاكتسابية[27].

ونقيضُ الحقِّ الباطلُ الذي ((يتمثلُ بالخيالِ والسرابِ الذي لا واقعَ له ولا وجودَ سوى في عالم التصوّر والوهم))[28]، فالباطلُ يتجسدُ بالعرقلة لجميع القوانين المنصوص عليها إلهيًّا محاولًا التمرد عليها.

إذًا فالمقابلةُ بين الحقِّ والباطل هي ((مقابلة بين ضدين لا واسطة بينهما: هما الحق/ حقًّا، والباطل/ باطلًا))[29]، أي أنَّ لا وجودَ لطريقٍ وسط بينهما.

وقد بيَّنَ القرآنُ الكريم الهدفَ من إرسال الرسل هو إقامة الحق ودحض الباطل؛ لأنَّ على أساسها يقوم العدل مصرِّحًا بذلك الباري عزَّ وجل بقوله:﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ**﴾ ص/26.

وتتجلَّى ثنائية الحق والباطل في خطاب نهج البلاغة في صورة صراع دائم بين الحق والباطل، فالعلاقة بينهما قائمة على النفي والتناقض؛ لأنَّ الحق هو الواقع والآخر أي: الباطل هو السراب الذي يحسبه الظمآن ماءً، مصورًا القرآن الكريم هذا الصراع ونتائجه بقوله تعالى:﴿ **كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ** ﴾الرعد/17، فالحق هو الثابت والباقي دائمًا وأبدًا، وأما الباطل فهو الزائل الذي لا بقاء له أو إن فترة بقائه مدة محدودة.

ومن هنا فقد اكتسَبتْ الذات الإلهية التي تعد أعظم من كلِّ واقع أول اسم وهو الحق، والإنسان كلما اقترَبَ من الله فهو على الحق وكلما ابتعدَ عنه فهو على الباطل[30] إذ كثيرًا ما تعرَّض الإمام لهذه الثنائية ملاحِظًا أنَّ الناسَ قد أخذت تبتعد عن طريق الحق وتروج الباطل خدمة لمصالحها؛ لذلك يخاطب الناس (عليه السَّلام) بعدم التسرع ورمي الناس باطلًا إذ قال:((**أيها الناسُ مَنْ عَرفَ مِنْ أَخيه وَثيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ طَريقٍ فَلا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أقاويلَ الرّجالِ. أما إنَّهُ قد يرمي الرَّامي، وتُخْطِيءُ السِّهَامُ، ويحبكُ الكَلامُ، وبَاطِلُ ذلك يَبُورُ، واللهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ. أما إنَّهُ لَيْسَ بينَ الحَقِّ والبَاطِلِ إلا أربع أصابع**)) [31]. وقد سُئِلَ الإمامُ عن معنى قوله هذا فقالَ:((**الباطلُ أنْ تَقُولَ**

---

[25]- شرح نهج البلاغة: ك 201/9 .

[26]- نفحات الولاية شرح عصري جامع لنهج البلاغة، ناصر مكارم الشيرازي،ط2، 1426هـ: 126/2 .

[27]- ينظر: نفحات الولاية شرح عصري جامع لنهج البلاغة: 126/2 .

[28]- نفحات الولاية شرح عصري جامع لنهج البلاغة: 126/2 .

[29]- المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1999م: 70.

[30]- ينظر : نفحات الولاية: 1/ 283 .

[31]- نهج البلاغة: 249 .

سَمِعْتُ، والحَقُّ أنْ تَقُولَ رأيْتُ))[32]، فهذا يدل دلالة واضحة على أنَّ ما تسمعه يحتاج إلى الدليل والشاهد، أما ما تراه فلا يحتاج إلى أي شاهد أو دليل؛ لأنَّه هو الدليل عينه.

فدعوةُ الإمام علي (عليه السَّلام) صريحةٌ إلى تثبيت أسس الحق وهدِّ الباطل من أساسه، فكانَ من واجبه الذي وكَّله الله إليه لكونه خليفة المسلمين. يقول(عليه السَّلام): **((اللَّهُمَّ إنَّكَ تَعْلَمُ أنَّهُ لم يَكُن الذي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً في سُلْطانٍ، وَلاَ التماسَ شيءٍ مِنْ فُضُول الحُطَامِ، ولكن لِنَرِدَ المَعالِمَ مِنْ دِينكَ، ونظْهِرَ الإصلاحَ في بلادِكَ، فيأمَنَ المظلومُونَ مِنْ عِبَادِكَ وتُقَامَ المُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ))**[33]، فمهمة الإمام**(عليه السَّلام)**هي تصحيح الانحراف في المجتمع وإعلاء كلمة الحق وإزهاق الباطل، إذ يرجع الإمام **(عليه السَّلام)** السبب في عدم أخذ الحق مكانه الطبيعي، وذلك لتخاذل بعضهم على نصرته بقوله:**((لَوْ لَمْ تتَخَاذَلُوا عَنْ نَصْر الحَقّ وَلَمْ تَهِنُوا عن تَوْهين البَاطِل، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ وَلَمْ يَقْومَنْ قَوِيَ عَلَيْكُم لِكِنَّكُمْ تِهْتُم مَتَاه بَنِي إسرائِيلَ. وَلَعمري، لَيُضعَّفَنَّ لكُم التّيهُ مِنْ بَعدِي إضعافًا، بِمَا خَلَّفتُمُ الحقَّ وراءَ ظُهُورِكُمْ))**[34]، فكان في خطابه **(عليه السَّلام)** كثيرًا ما يعظهم بسلوك طريق الهدى وإن قَلَّ سالكوه ، كما يقول:**((أيَّهَا النَّاسُ لا تَستوحِشُوا في طرِيقِ الهُدَى لِقِلَّةِ أهلِهِ))**[35]، فطريق الحق هو الطريق الوحيد الذي مَنْ تبعه نَجا، ومن تخلَّفَ عنه هلك إذ يقول عليه السلام:**((أيُّهَا النَّاسُ مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الوَاضِحَ وَرَدَ الماءَ ومَنْ خَالَفَ وَقَع في التيه !))**[36].

فتأكيد الإمام **(عليه السَّلام)** على ضرورة عدم الاستيحاش في الحق لقلة سالكيه والاستئناس بالباطل لكثرة سالكيه لهو دليل واضح على كثرة أتباع الباطل وقلة أتباع الحقّ، إلَّا أنَّ الكثرة ليستْ هي الدليل فحكومة الباطل سرعان ما تتلاشى؛ لأنَّها تستند على أسس واهية.

وقد خاطب الإمام**(عليه السَّلام)** أحد الصحابة بقوله: **((لا يُؤنِسنَّكَ إلا الحق ولا يُوحِشَنّكَ إلَّا الباطل))**[37]، إذ لا أنيس بعد الحق، فلكلٍّ من ((الحق والباطل أنصاره ومؤيدوه الذي يدافعون عنه))[38]، فيكون غرض الإمام علي **(عليه السَّلام)** من إيراد ثنائية الحق والباطل ما هو إلا وضع الأمور مواضعها بسبب كثرة البصائر الزائغة عن الحق.

فحقيقة الصراع بين الحق والباطل هو صراع بين الاستقرار المتأتي من إصابة الواقع والاضطراب وللاستقرار المتمثِّل في اللهاث خلف سراب.

ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ العلاقة وثيقةٌ بين الحقِّ والإيمان والتوحيد؛ لأنَّ في كلِّ ذلك سعي نحو الاستقرار وهو المبدأ الذي يسعى الإمامُ**(عليه السَّلام)** بالمخاطَب إلى بلوغه إذ بإتباع كلام الإمام**(عليه السَّلام)** وهو المحرك الدافع وراء الخِطَاب في هذه الثنائيات تتحقق سعادة الدارين التي من لوازمها الاطمئنان والاستقرار.

نستنتج من كل ما سبق أن الإمام**(عليه السَّلام)** كان كثيرًا ما يعمد إلى ذكر الشيء ونقيضه، فلم يكتفِ بذكر الشيء فقط؛ وذلك لأنَّ التناقض والتقابل هما ديمومة الحياة فالإمام علي **(عليه السَّلام)** كان خبيرًا بالواقع وعلاقات

---

[32]– نهج البلاغة: 249 .
[33]– نهج البلاغة: 238 .
[34]– نهج البلاغة: 303 .
[35]– نهج البلاغة: 402 .
[36]– نهج البلاغة: 402 .
[37]– نهج البلاغة : 237 .
[38]– روائع البيان في خطاب الإمام الجوانب البلاغية واللغوية في بيان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: 182 .

الناس فيما بينهم، فالبنية الضدية في الثنائيات تشحن الخطاب في نهج البلاغة بالحركة التي ((تستوعب في صلبها مفارقات الحياة وكل ما فيه يوحي بحركة الجدل التي تعتمل في الواقع))[39]. فالمخاطب لم يعِ وعيًا كاملًا بالشيء، إلَّا وقُدِّم له نقيضه، مثلما لم يعِ بالجمال إلَّا إذا قدّمنا له الوجه الآخر للحقيقة ألا وهو القبح[40].

2- الثنائيات المتناغمة:

أ- الدنيا والآخرة :

تشكل ثنائية الدنيا والآخرة المتقابلة ثنائية متنامية، بمعنى أنَّ الدنيا لم تناقض الآخرة، ولا الآخرة تحاول أن تنفيَ الدنيا بل كلٌ منهما تكون مكملةً للأخرى، فالعلاقة بينهما هي علاقة تنام وتناغم.

فالدنيا – كما هو معروف – في جميع الأديان السماوية هي ((دار طارئة متبدلة جعلت ليتزود منها الإنسان ويكسب فيها السموَ والكمالَ والمعرفةَ التي تحلق به إلى عالم الخلود))[41]. فعندما أرادَ اللهُ تعالى أن يختبرَ الناسَ جعلَ لهم الدنيا وسيلةً لاختبارهم وما عليهم من تأدية الواجبات، فهي دار ممر تؤدي إلى الدار الباقية دار المقام والجزاء والخلود[42]، فالله تعالى يبتلي عباده بشتى أنواع البلاء من شأنها تربية الإنسان وصقل شخصيته.

ففي خطاب نهج البلاغة نجد الإمام عليًّا **(عليه السَّلام)** يستعمل هذه الثنائية من نوع المقابلة بين النقص والكمال، علمًا أنَّ الإمامَ قد يأتي بهما متلازمتين. أو منفردتين تبعًا لما يتطلبه سياق الخطاب.

فالمتأمل للخطاب في نهج البلاغة يرى أن هذه الثنائية تشكل منطقة اشتغال صاحب الخطاب بمعنى أنها مهيمنة فيه ، فتتعدد مواقف الإمام علي **(عليه السَّلام)** من الدنيا فمرة يقف منها موقفًا سلبيًا، وقد يكون موقفه منها إيجابيًّا، وقد يقف في بعض الحالات موازنًا بينها وبين الآخرة.

فقد وصف الإمام**(عليه السَّلام)** الدنيا لمخاطَبيه محذرًا إياهم منها بقوله:((**فإنَّ الدُّنيا رنق مَشرَبُهَا، رَدِغٌ مَشرَعُهَا، يونق مَنظَرُهَا، ويوبق مَخْبَرُهَا. غُرورٌ حَائِلٌ وَضَوءٌ آفِلٌ، وَظِلٌّ زَائِلٌ، وَسِنادٌ مَائِلٌ، حتَّى إذا أنِسَ نافِرُها، واطمَأنَّ ناكِرُهَا، قمصت بِأرجُلِهَا وقنصت بِأحبلِهَا واقصدت بِأسهُمِهَا، واعلقت المرءَ أوهَاقَ المنيَّة قَائِدةً لَهُ إلى ضَنك المَضْجَعِ وَوَحْشة المَرجع ومعاينة المَحَلِّ**))[43]، إذ يؤكدُ الإمامُ**(عليه السَّلام)** في خطابه على حقيقة الدنيا داعيًا الإنسانَ أن يكون على حذرٍ منها وأن لا يغتر بمغرياته:((**أُحَذِّرُكُم الدنيا، فإنَّها حُلوَةٌ خَضِرة، حُفَّتْ بالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبتْ بالعَاجِلَة، وَرَاقَت بالقَليل، وتحلَّتْ بالآمالِ وَتَزَيَّنَتْ بالغُرُور**))[44]، إذ كلُّ ذلك قائم على اختبار الناس وتمحيصهم، وكان يدعو في خطابه إلى التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة في الضوء الموازنة بينهما بقوله:((**إنَّما الدُّنْيا دارُ مَجَازٍ، والآخرةُ دارُ قَرَارٍ، فَخُذُوا من ممركم لمقرّكم**))[45]، فهي دعوة صريحة ليتزود الإنسان من الدنيا الأعمال الصالحة ((دعوة إلى مواجهة الحياة بواقعية وصدق))[46]، إذ لا يجد الإنسان العاقل في هذه الدنيا إلا عبورًا نحو الآخرة بل إنَّه عبور سريع لا يترك العابر فيه أثرًا إلَّا عمله.

---

[39]- بنية القصيدة في شعر عز الدين المناصرة : فيصل صالح القصيدي، دار مجدلاوي، عمان- الأردن، 2005م: 146 .

[40]- ينظر: تذوق النص الأدبي جماليات الأداء الفني: 167 .

[41]- نفحات الولاية : 2/ 122 .

[42]- ينظر: خطب نهج البلاغة دراسة توصيلية : 152 .

[43]- نهج البلاغة : 122 .

[44]- نهج البلاغة: 205 – 206 .

[45]- نهج البلاغة: 404 .

[46]- حركة التاريخ عند الإمام علي: 47 .

ونجدُ للإمام **(عليه السَّلام)** موقفًا ايجابيًّا من الدنيا في قوله: **((إنَّ الدُّنيا دارُ صدقٍ لِمَنْ صَدَقَها، ودارُ عافيةٍ لمن فَهِمَ عنها، وَدَارُ غِنيٍ لمن تزود منها، ودارُ موعظةٍ لمن أتَّعَظَ بِهَا مَسْجِدُ أحبَّاء الله وَمُصَلَّى مَلائِكَةِ اللهِ وَمَهْبِطُ وحي الله، وَمَتْجَرُ أولياءِ الله اكتَسَبُوا فيها الرّحْمَةَ وَرَبِحُوا فيها الجنَّة))**[47].

ويتوصل الإمام علي **(عليه السَّلام)** في خطابه إلى نتيجة مؤداها هي أن الدُّنيا في واقع الأمر لا تكذب على الإنسان ولا تغره فله فيها من المواعظ تكفي ليراها الإنسان على حقيقتها.

فالإنسان هو المغتر بها والمخدوع بأباطيلها والمتغافل عنها فيقول**(عليه السَّلام)**: **((وَحَقًّا أقُولُ ما الدُّنيا غرَّتكَ، ولكن بها اغتررتَ، ولقد كَاشَفَتكَ العِظَات، وآذنتكَ على سَوَاءٍ، وَلَهِيَ بما تَعِدُكَ من نزول البلاءِ بجسمِكَ، والنقص في قُوَّتك أصدقُ وأوفَى من أن تكذبكَ أو تُغرّك))**[48]، فعلى الإنسان أن يتعظَ منها ولا ينقادُ لها وعليه أن يتذكَّر مواقفَ الآخرة وما سيجد المرء من حساب، فيكون اليوم الآخر بالنسبة للإنسان الصالح يومًا مضيئًا وبالنسبة لغيره مظلمًا بسبب أعماله في الدنيا.

إذًا ومما سبق نستنتجُ أنَّ الدُّنيا في خِطَاب الإمام علي **(عليه السَّلام)** إما أنْ تكون متحركة أو ساكنة (جامدة) وهذا ما يوضحه الشكل الآتي:

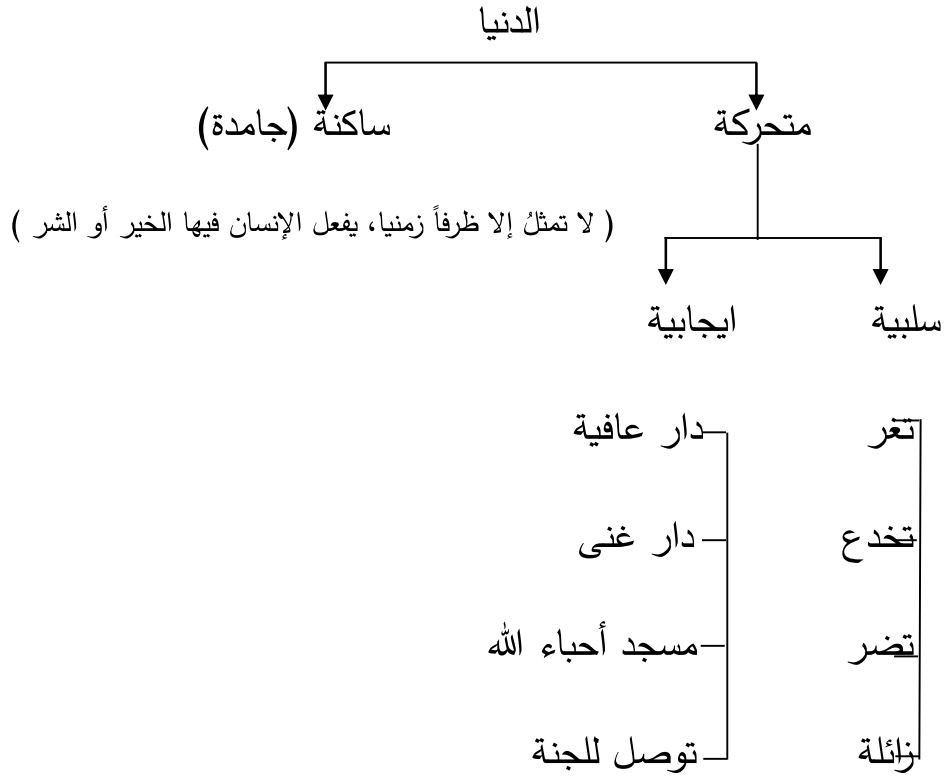

فإذا علمنا أنَّ محاورَ الموضوع هي المخاطِب والمخاطَب والدنيا، عرفنا أنَّ المخاطِب الإمام علي (عليه السَّلام) هو العنصر الأكثر حركة نحو الدُّنيا السلبية.

---

[47]– نهج البلاغة: 626 .

[48]– نهج البلاغة: 435 – 436 .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر، راجي أنور هيفا، دار العلوم، لبنان، ط1، 1426هـ- 2005م.
- بنية القصيدة في شعر عز الدين المناصرة : فيصل صالح القصيدي، دار مجدلاوي، عمان- الأردن، 2005م.
- تذوق النص الأدبي – جماليات الأداء الفني، رجاء عيد، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة- قطر، ط1، 1414هـ- 1994م.
- تكوين العقل العربي، محمد عابد الجابري ، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط8 ، 2002م
- التوحيد، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت381هـ)، تح: هاشم الطهراني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة، ط8، 1423هـ.
- التوحيد، مرتضى مطهري، ترجمة : إبراهيم الخزرجي، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط1، 1998م.
- التوحيد والشرك في القرآن الكريم، جعفر السبحاني، دار الولاء، بيروت، ط2، 1425هـ- 2004م.
- جدلية الخفاء والتجلي – دراسات بنيوية في الشعر، كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1979م.
- حركة التاريخ عند الإمام علي (عليه السَّلام)، محمد مهدي شمس الدين، المؤسسة الدولية، بيروت، 1997م.
- الخطاب القرآني للأنبياء والرسل – دراسة فنية (أطروحة دكتوراه)، نبيلة عبد المحسن حسن، كلية التربية، جامعة بغداد، 1422هـ- 2001م.
- خطب نهج البلاغة – دراسة توصيلية (رسالة ماجستير)، فاتن فاضل العبيدي، كلية التربية، جامعة بابل، 1426هـ- 2005م.
- دينامية النص – تنظير وانجاز، محمد مفتاح، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2006م .
- روائع البيان في خطاب الإمام – الجوانب البلاغية واللغوية في بيان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رمضان عبد الهادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1423هـ- 2002م .
- شرح نهج البلاغة، بابن أبي الحديد المعتزلي (ت656هـ)، تقديم وتعليق: حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت- لبنان، ط2، 1425هـ- 2004م.
- علم اللغة التوحيدي بين النظرية والتطبيق، محمد علي الحسيني، مؤسسة التوحيد، إيران، ط1، 1417هـ - 1997م.
- المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1999م.
- المنطق: محمد رضا المظفر ، مؤسسة إشارات ، دار العلم ، قم .
- نفحات الولاية شرح عصري جامع لنهج البلاغة، ناصر مكارم الشيرازي،ط2، 1426هـ.
- نهج البلاغة، محمد عبده ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، ط1، 1424هـ- 2003م.